صور سياحة

٢ - صروح باريس

وطرف من معالمها وآثارها

بقلم سائح متجول

دار الحديث على ظهر السفينة بيني وبين صديق ممن درسوا في باريس وعرفوا كثيراً من معالمها وأحوالها ، فقال لي حين أعربت له عن آرائي في باريس ومجتمعاتها وخواص حياتها الاجتماعية : « خذ باريس وحدها ، واترك من فيها »

وهي تفرقة في موضعها ؛ ففرق بين باريس العاصمة التالدة التي تزخر بالربوع والمعاهد الأثرية والعلمية الجليلة ، وبين المجتمع الباريزي وخلاله ومظاهر حياته

وسنخص باريس بالحديث في هذا الفصل ، ونحاول أن نعرض لمحة من معالمها ومعاهدها وآثارها العظيمة

باريس عاصمة القرون والأجيال المتعاقبة ؛ وإنك لتلمح في ربوعها ومعاهدها هذا التعاقب في القرون والأجيال ، فمن آثار رومانية وقوطية ، الى آثار العصور الوسطى ، ثم عصور الملكية الزاهرة وآثار الثورة ثم الامبراطورية والعصر الحديث ؛ وهذه الأجيال المتعاقبة هي فخر العاصمة الفرنسية ، وتراثها من أجل ما عرفت الأمم والعواصم التالدة

وهذا التعاقب في العصور ظاهر الأثر في باريس وفي أحيائها ، فباريس مدينة عظيمة شاسعة الأرجاء ولكنها تبدو كأنها عدة مدن متباينة شيدت في عصور وظروف مختلفة ؛ فمن أحياء قديمة تغص بالشوارع الضيقة والمباني العتيقة وتحمل أسماء تاريخية لا شك في قدمها ، ومن أحياء جديدة تلمح أثر التجديد في شوارعها وميادينها الشاسعة ، ومن أحياء مزجت بين القديم والجديد ؛ وهذا التباين في تخطيط العاصمة الفرنسية وفي أحيائها يجعل منها مدينة قليلة التجانس والتناسق ، بيد أن مسحة من الجلال والعظمة تطبع هذه المجموعة الضخمة المتباينة من المعالم والربوع

وفي باريس من المشاهد التاريخية الجليلة ومن المواطن والأحياء العظيمة ما يقتضي وصفه فصولا بأسرها ؛ ولقد خصت هذه المواطن ببعض الكتب الساحرة من قلم المؤرخ ليفوتر وغيره ؛ وسنحاول أن نمر مسرعين بطائفة من هذه المشاهد والمواطن التي كتب عنها الكثيرون من قبل

إن أروع المشاهد التاريخية الباريزية في نظرنا هو قصر اللوفر وذخائره الفنية الجليلة ؛ فهذا القصر القديم الذي يجثم كالخلود على ضفاف السين ، يمثل أجيالاً من عظمة فرنسا وعظمة الملوكية الفرنسية ، وفي أبهاء اللوفر وقاعاته الرائعة تذكر عصور آل قالوا وآل بوربون : عصور فرانسوا الأول وكاترين دي مديتشي ، وهنري الرابع ، ولويس الرابع عشر ، بكل ما فيها من روعة ودسائس ومنافسات ، ومآس دموية ، وأيام زاهرة

وتضم أجنحة اللوفر اليوم عدة من المجموعات الفنية الجليلة ، ولاريب أن متحف التصوير الذي يشغل عدة أبهاء شاسعة من اللوفر هو أعظم هذه المجموعات وأغناها ؛ فهنالك تمثل أقدم مدارس التصوير منذ بدء عهد الأحياء إلى أحدثها ، وهنالك مجموعات حافلة لأعظم أساتذة التصوير الايطاليين مثل ليوناردو داڤنشي ، ولي تسيان ، ورافائيل سانزيو ، وبورجينو وغيرهم ، وأعظم الأساتذة الأسبانيين مثل موريليو وفيلاسكيز ، وهنالك أيضاً مجموعات حافلة لأعظم المصورين المحدثين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ وربما كانت مجموعات عصر الأحياء التي يحتويها اللوفر أعظم وأغنى مجموعات من نوعها بعد مجموعات قصر

إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة ، ولكن بالمقاومة مادام ذلك الغربُ بازائه ؛ والفريسة لا تتخلص من الحلق الوحشيّ إلا باعتراض عظامها الصُّلبة القوية

وكم في الشرق من سياسي كبير يجعلونه وزيرا فتكون الوظيفة هي الوزير لا نفس الوزير ، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبة ونصّبوها في كرسيه لكانت أكثر نفعا منه للأمة بأنها أقل شراً منه ....

يا بني كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم ، فليست هذه هي مسألة الشرق ، ولكن المسألة : من هو النبي السياسيُّ الذي يرضى أن يُصلَب ....؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الفاتيكان ، بل يلوح لنا أن فى اللوفر مجموعات لبعض الأساتذة أغنى من نظائرها فى الفاتيكان : وفى اللوفر أيضاً مجموعات فاخرة من التحف والحلى الملوكية التى تبهر الأبصار بجمالها وروعتها ؛ وبه أجنحة ومجموعات فنية أخرى تقتضى عدة زيارات لاستعراضها وتأملها

وما زال قصر اللوفر يحتفظ بروعته الملوكية سواء فى أبهائه وغرفه الداخلية أو فى واجهاته الخارجية ، وما زالت ساحاته الشاسعة وأبراجه القائمة تحتفظ بجلالها القديم ؛ ومما يبعث الى الأسف أن ساحة اللوفر الكبرى مفتوحة من جانبيها لمرور السيارات الضخمة (الأومنبوس) ذهاباً وإياباً ، وفى ذلك تشويه للساحة وللقصر ذاته ، وإن كان فيه تسهيل للمرور ، واختصار للطريق

وفى قلب باريس عدة قصور تاريخية شهيرة أخرى نذكر منها قصر اللكسمبور الذى يقع فى حديقة اللكسمبور الشهيرة ، ويشغله الآن مجلس الشيوخ (السينا) ، وقصر بوربون الذى يشغله الآن مجلس النواب ؛ والقصر الملكى (الباليه رويال) الذى بناه الكردينال ريشليو لاقامته ، وتركه بعد وفاته للملك ، وسمى الباليه رويال ؛ وقصر التويلرى الذى بدأته كاترين دى مديتشى ، وأتمه هنرى الرابع ؛ ولهذه القصور التاريخية كلها سير وذكريات شهيرة تملأ صحفاً حافلة من الأدب الفرنسى ؛ وهنالك أيضاً قصر « الأليزيه » الذى يرجع إلى القرن الثامن عشر ، والذى جعل مقراً لرآسة الجمهورية فى العصر الأخير

وثمة أثران يحوطهما جلال مؤثر ، ويبعثان إلى التأمل شجناً خاصاً ، هما « دار الانفاليد » و « الباتيون » ؛ ويحتوى « دار الانفاليد » أو دار العجزة ، التى تقع فى شمال غربى باريس فى ميدان شاسع جداً ، فضلاً عن المستشفى الذى يخلد اسمها وصفتها ، على « قبر الأمبراطور » أو قبر نابليون . ويقع القبر فى طرفها الشمالى ، وهو عبارة عن حظيرة مستديرة تغطيها قبة عظيمة ، وقد نصبت فى وسطها منصة رخامية عالية ، ووضع فوقها تابوت فاخر من المرمر الأحمر القاتم يحوى رفات الأمبراطور ؛ ونصبت حول المنصة مجموعة من الأعلام التاريخية التى غنمها الأمبراطور فى مختلف المواقع الشهيرة ؛ مارنجو ، فاجرام ، أوسترلتز ، إيلو ، بينا وغيرها ؛ ومن بين هذه الأعلام علم كتب عليه « موقعة الأهرام » ، ولكن ليست عليه كتابة عربية تدل على أصله ؛ والحق أن منظر قبر الأمبراطور يبعث إليك كثيراً من الروع والاجلال لذكرى ذلك الذى ملأت حياته وأعماله العسكرية الباهرة مرحلة كاملة من تاريخ أوربا بأسرها

وأما الباتيون ، فهو كما نعلم مقبرة الخالدين ؛ وقد كان فى الأصل كنيسة تسمى « سانت جنفياف » ، حولت أيام الثورة إلى مقبرة قومية للعظماء ؛ ويقع الباتيون فى شارع سوفلو فى الحى الجامعى على مقربة من الكليات ؛ ومازال الباتيون على وضعه الأول كنيسة فخمة ترين جدرانها طائفة من الصور الدينية البديعة ؛ ولكن جلال الباتيون فى أقبيته السفلى ؛ ففى تلك الأقبية التى قسمت إلى أروقة وحظائر مختلفة يرقد عدة من أبناء فرنسا الخالدين من القواد والكتاب والمفكرين ؛ وربما كانت أسماء فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وزولا ، وجوريس ، هى أعظم الأسماء رنيناً فى أقبية الباتيون ؛ بيد أن هنالك أسماء كثيرة من القادة والزعماء السياسيين أيام الأمبراطورية الأولى والأمبراطورية الثانية : هذا تابوت الماريشال ناى ، وهذا إناء يحتوى قلب ليون جامبتا ... وهذا تابوت جان جوريس الذى اعتبر يوم مقتله فى سنة ١٩١٤ خائناً للوطن ، واعتبر بعد ذلك بعشرة أعوام من أبطال الوطن ونقلت رفاته إلى الباتيون ! وهذا تابوت فولتير ؛ ولكن هل عثر الخلف حقاً برفات فولتير ؟ لقد ثار حول ذلك جدل منذ أعوام ، وقرأنا فى بعض الصحف الفرنسية الكبرى أنه قد عثر على هيكل عظمى فى بعض أقبية كنيسة فى روان ، يظن من شكل جمجمته وفكيه أنه هيكل فولتير ، خصوصاً وأنه يروى أن الذى تولى دفنه هو عمه راعى هذه الكنيسة ، وأنه دفنه فى بعض أقبيتها ، ولكن دليل الباتيون يرفض أن يستمع إلى هذه الرواية ويؤكد بكل قواه أن رفات فولتير ترقد فى التابوت المرقوم باسمه !

وكما أن باريس غنية بالقصور الملوكية القديمة ، فهى غنية أيضاً بالكنائس الأثرية ؛ ومن أقدم وأشهر كنائس باريس كنيسة « نوتردام » التى يرجع بناؤها إلى القرن الثانى عشر ، والتى يقترن اسمها وسيرتها بكثير من الحوادث التاريخية ؛ وكنيسة « سانت شابيل » التى تقع فى « الباليه دى جستيس » (دار العدل) ، والتى بناها لويس التاسع فى القرن الثالث عشر ؛ وهذه الكنيسة الصغيرة هى حلية ساطعة بين الآثار الباريزية ، وقد بنيت على الطراز القوطى بافتنان بارع ، وزينت بنقوش

ذهبية رائعة ، وجعلت من طبقتين ؛ وكنيسة المادلين الفخمة التي تقع في الميدان الشهير المسمى باسمها ، والتي ترجع إلى القرن الثامن عشر ؛ وكنيسة سان سلبيس التي تقع في نهاية حي سان جرمان على مقربة من اللوكسمبور ، وقد أقيمت أمامها في الميدان المسمى باسمها نافورة أثرية تحوطها تماثيل أربعة لبوسويه وفنيلون وفلشييه وماسيون ؛ وهنالك غير ذلك من الكنائس الأثرية مما يضيق المقام عن ذكره

وهنالك ، على مقربة من «سانت شابيل» ، في الناحية الأخرى من دار العدل يوجد صرح يثير اسمه وذكرياته في النفس شجناً وأسى : ذلك هو سجن « الكونسيرجيري » الشهير الذي كان أيام الثورة مسرحاً لطائفة من المآسي المؤثرة . كم شهدت تلك الأبراج والغرف الحجرية الضيقة من محن وآلام ، وكم سكبت بين تلك الجدران القاتمة من دموع ؟ أجل هذا هو سجن « الكونسيرجيري » الرائع الذي نقلت إليه ماري انتوانيت لتمضي أيامها الأخيرة قبل المحاكمة ؛ لقد كانت هذه الكهوف المظلمة تغص أيام الثورة بالمحكوم عليهم ، ومنها ينقلون إلى العالم الآخر . هذه غرفة ماري انتوانيت ، وهذا هو الأثاث الحقير الذي استعملته ملكة فرنسا زهاء شهرين ، وهذا هو مخدع الزينة الأخيرة الذي قص فيه شعرها وأعدت لتنفيذ حكم الإعدام : وهذه هي بعض مراسلات ووثائق رسمية تتعلق بالمحاكمة . . . . أجل هذه هي الآثار المادية المأساة من أروع وأشنع مآسي التاريخ ! وإن القلب لينكمش أسى حينما يتأمل هذه الآثار المحزنة ويذكر ذلك العهد الدموي — عهد الإرهاب — بكل محنه وجرائمه وفظائعه

وماذا نذكر أيضاً من صروح باريس العظيمة ؟ هنالك الأوتيل دي ڤيل ، أو « دار البلدية » بماضيها الحافل ؛ ولقد كانت « الأوتيل دي ڤيل » في مستهل الثورة مستودعاً للسلاح ، فاقتحمها الثوار يوم ١٤ يوليه ، وأخذوا منها السلاح الذي هاجموا به الباستيل : غير أن الدار التي تقوم اليوم ليست هي الدار القديمة ، وإنما هي دار جديدة أنشئت في مكانها وباسمها ؛ وهنالك دار الأوبرا ، وهي محدثة ترجع إلى نحو سبعين عاماً فقط ؛ ولكن توجد ثمة طائفة أخرى من المسارح القديمة أشهرها مسرح « الاوديون » الذي أنشيء في أواخر القرن الثامن عشر ، والذي ما زال يحتفظ بطابعه القديم ، ويشرف بحناياه وأعمدته القصيرة القاتمة على الميدان الذي سمي باسمه من ناحية ، وعلى اللوكسمبور من الناحية الأخرى

وأما ميادين باريس فهي من أعظم وأروع ما تزدان به العواصم الجليلة : ؛ وربما كان أعظمها وأبدعها ميدان «الشانزليزيه» الذي لا تكاد تلم العين بجنباته الشاسعة ، والذي تنساب من إحدى ضفتيه حدائق الشانزليزيه الرائعة ؛ وميدان « الأتوال » المستدير الشاسع الذي يقوم في وسطه قوس النصر ، وتنساب من أطرافه عدة شوارع هامة سميت بأسماء قادة فرنسا ، مثل لازار هوش ، وكليبر ، وفوش ؛ وقوس النصر من أعلام الآثار الباريزية يثوي تحت ظلاله « الجندي المجهول » ، ويحج إليه الزائرون أفراداً وجماعات في خشوع وإجلال ؛ وميدان الشان دي مارس حيث يقوم برج إيفل الشهير ، وميدان الكونكورد حيث تقوم مسلتنا المصرية ، وميدان فندوم الذي يقع بجواره ويزينه عمود من أعمدة الحرية ، وميدان المادلين الذي تتفرع منه أهم الشوارع التجارية ؛ وميدان الباستيل الذي كان يشغله سجن الباستيل قبل الثورة ، ويدل الآن عليه عمود الحرية القائم مكانه

وتزدان باريس بعدة من الحدائق والبساتين الشهيرة ، وفي مقدمتها حديقة اللوكسمبور الشاسعة ، التي تزينها بعض البحيرات الصغيرة وتماثيل للملوك فرنسا وملكاتها ؛ وبستان مونصو ؛ وحدائق الاليزيه وغيرها ؛ وأروع من ذلك كله غابة بولونيا التي تقع في غربي باريس ، وهي بسيط شاسع من الأحراج النضرة تتخللها طرق نظمت أبدع تنظيم ، بعضها للسيارات ، وبعضها للفرسان ، وبعضها للسائرين ؛ وتقدم هذه الغابة الشهيرة بطرقها ومتنزهاتها منظراً يأخذ باللب ، ويذكي الخيال ، وينعش المشاعر ؛ ولقد كانت غابة بولونيا وما زالت متنزه الأرستوقراطية ، وملتقى المحبين ، يؤمون طرقاتها وأحراجها الساكنة في أمن وطمأنينة ؛ ولم نر فيما رأينا من متنزهات أوربا وأحراجها النضرة ، أبدع منظراً من هذه الغابة الساحرة التي تحمل طابع العناية الشاملة في سائر أنحائها

هذه لمحة سريعة عن صروح باريس ومواطنها الأثرية العظيمة ، ولسنا ندعي أنها لمحة شاملة ، وكل ما هنالك أننا ذكرنا أهم ما يسترعي عناية السائح المتجول ؛ أما الحديث عن الصروح والمعاهد العلمية فقد رأينا أن نستبقيه إلى فصل خاص

(يتبع)

(***)